العرب
الجمعة 2019/10/11
السنة 42 العدد 11494

سردية فلسطين بين إدوارد سعيد ومحمود درويش

ناقد مغربي يصف المشترك بين الشعر والفكر

مبدعان تحديا آلات الاستعمار

لطالما كان المنتصر هو من يكتب التاريخ ويحرف ويسطر أركانه وفق ما يشتهيه بمنظومته الثقافية المهيمنة، لكن هذا لا ينطبق على القضية الفلسطينية، حيث كان لأدباء ومفكري فلسطين دور هام للغاية في التصدي للروايات المغلوطة التي بثها الاحتلال الإسرائيلي، ومن أبرز هؤلاء الفلسطينيين الشاعر محمود درويش والمفكر إدوارد سعيد اللذان كان لهما دور كبير في نحت سردية فلسطينية تتجاوز منظومات الاحتلال بكل عناصرها.

عواد علي
كاتب عراقي

يسعى الناقد والأكاديمي المغربي يحيى بن الوليد في كتابه الجديد "سرديّة فلسطين بين إدوارد سعيد ومحمود درويش"، وهو باكورة إصدار دار "العائدون للنشر" في عمّان، إلى الغوص المقارن في عوالم سردية الهوية عند المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد والشاعر الفلسطيني محمود درويش.

يتضمن الكتاب مقدمة للشاعر عمر شبانة، مدير الدار، يقول فيها "في تعاطيه مع كل من سعيد ودرويش، سواء على المستوى الشخصي أو الإبداعي، ينفذ بن الوليد إلى جوانب خاصّة من كلتا الشخصيّتين، وعلاقة كل منهما بسردية الوطن، كما في علاقتهما بالمنفى، وهي علاقة يرصدها على مستوياتها النظرية والعملية، فيظهر فيها درويش "العائد" من المنفى إلى ما يسمّيه "نصف عودة" إلى "نصف وطن"، محاولا إنهاء حياة المنفى، بينما يبدو سعيد الرافض لهذه "العودة" والمتشبّث بفكرة المنفى المرتبطة بالمثقف المتمرّد والمنشقّ".

مشروعان متعالقان

يشير عمر شبانة في تقديمه لكتاب "سرديّة فلسطين بين إدوارد سعيد ومحمود درويش" إلى حلقات الوصل التي أقامها الباحث يحيى بن الوليد، في موازاة تعاطيه مع المشروع "السعيديّ" ومفرداته وتعالقه مع "مشروع" درويش، مشيرا، بذكاء وخفة ظل ربما، إلى درجة من اتكاء هذا على ذاك، وخالصا، في واحدة من أهم خلاصاته، إلى اشتراك المشروعين، السعيديّ والدرويشيّ، في نقاط كثيرة، أبرزها فكرة الوطن، وسرديّة هذا الوطن وروايته.

لكن رواية كل منهما، كما يبنيها بن الوليد، تذهب أبعد ممّا هو "وطني"، بل أبعد من القومي/ العروبي، لتعانق الأفق الكوني، العالمي، والإنساني. ومن هاتين الروايتين/ السرديتين، يبني الناقد النابه روايته هو عن كلا المشروعين، وكلتا الشخصيتين، وكيف يشيّد كلّ منهما عالمه، في ظلّ معاناة شخصية وأخرى وطنية-نضالية لا تستسلم للسائد و"الجماهيريّ".

يفرد بن الوليد مساحة وافية لمسيرة إدوارد سعيد وتحولات تلك المسيرة، خصوصا التحول المفصلي الذي تحقق بعد هزيمة يونيو 1967، وانتفاض الفلسطيني في أعماق وجدانه، وصولا إلى منجزه المرجعي كتاب "الاستشراق" (1978) وليس بعيدا عنه، وبعده بعام كتابه المهم الآخر "مسألة فلسطين" (1979) بحسب الترجمة الفرنسية، ومن ثم ما استكمل به ثلاثيته تلك ألا وهو كتابه "تغطية الإسلام" (1981).

> كتاب يبرز اشتراك المشروعين «السعيديّ والدرويشيّ»، في نقاط كثيرة، أبرزها فكرة الوطن، وسرديّة هذا الوطن وروايته

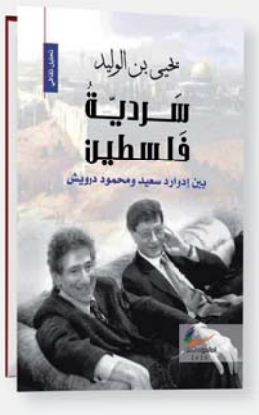

ينتقل الكاتب، بعد ذلك، إلى سبر أعماق التجربة الشعرية والفكرية والإنسانية والمعرفية المتعلقة بالشاعر محمود درويش.

وهو في مختلف فصول الكتاب وذروات تجليه، يواصل التأمّل المقارن بين التجربتين: سعيد ودرويش، بوصفهما الأنموذجين الأعلى كعبا، إن على صعيد بحث فلسطين عن سرديتها الخاصة بها، أو على صعيد تفكيك السردية الصهيونية/ الإسرائيلية، بوصفها، وفق السياق المكتوب، سردية إمبريالية لا تختلف من حيث الجوهر عن الخطاب الإمبريالي الغربي إلا بكونها سردية أكثر تصلبا وانغلاقا ورجعية من الإمبريالية الغربية على وجه العموم.

يتطرق الكتاب إلى سردية الفلسطيني في مواجهة السردية الصهيو- أميركية والغربية، وإلى علاقة كل من سعيد ودرويش بالمنفى (ما تقاطعا فيه هنا وما اختلفا)، كذا علاقة كل منهما بالمؤسسة الفلسطينية الرسمية (منظمة التحرير الفلسطينية)، علمانيتهما ومن ثمّ مفهوم كل منهما للآخر، والشكل المتخيّل عن كل منهما لحل الصراع (الحل النهائي)، علاقتهما بالنقد وجدواه، إضافة إلى تفكيك مصادر قوة كل منهما وفرادته وكريزمات تفوقه، وتفاصيل وحيثيات أخرى كثيرة، يقف عندها بن الوليد، ويخضعها لمبضع التحليل، مارّا على مواعيد تقاربهما، وعلى أشكال التعاون بينهما التي لم تقتصر على كتابة سعيد مقالات شبه دورية منتظمة في مجلة "الكرمل" عندما كان درويش يترأس تحريرها.

رواية التاريخ

بالإضافة إلى مقدمة عمر شبانة، يتضمن الكتاب تمهيدا "في سياق الوعي المحلّق"، وفصلا خاصا بسردية إدوارد سعيد، وفصلا حول سردية محمود درويش، وخاتمة حملت عنوان "إنما الأمم السرد".

يرى بن الوليد، في إطار التمهيد، أن اقتصار كتابه على سردية فلسطين في منجزيّ سعيد ودرويش لا يعني "تغييب أسماء فلسطينية أخرى وحتى عربية خدمت بدورها فكرة فلسطين".

ويخلص في خاتمة الكتاب إلى أن فكرة السردية "ليست متعلقة بشعب أو مجموعة قومية دون أخرى"، وأن التاريخ بحاجة إلى من يرويه، حيث لم يتح للفلسطينيين قبل الاحتلال كتابة "تاريخهم الوطني"، كما يذهب في خاتمته الجامعة إلى أن أهمية سعيد ودرويش تأتي من سرديتيهما وكسرهما لمألوف السردية التاريخية المثقلة بالطابع الوطني السوسيولوجي أو التقليدي، وفي عدم إيغالهما وإفراطهما في التاريخ ذاته، ومراوحتهما بين "التاريخ العبء" و"التاريخ الحافز"، وفي اعتمادهما على منظور يبحث لسردية فلسطين عن موقع في النزعة الإنسانية الكونية وفي التاريخ العالمي للقرن العشرين ككل، وبكثير من التفرّد والتميز على مستوى "سلاح الخطاب"، ودونما سقوط في أي صنف من صنوف الالتزام الراديكالي بالفكرة الراديكالية أو "لغم الفكرة – الوثن".

> محمود درويش وإدوارد سعيد جعلا لسردية فلسطين موقعا في النزعة الإنسانية الكونية وفي التاريخ العالمي للقرن العشرين

يُذكر أن يحيى بن الوليد باحث وأكاديمي مغربي، مختص في قضايا التراث والنقد الثقافي، حاصل على دكتوراه في الخطاب النقدي والفلسفي بالمغرب. من مؤلفاته "التراث والقراءة: دراسة في الخطاب النقدي عند جابر عصفور"، و"الوعي المحلق: إدوارد سعيد وحال العرب".

أما دار "العائدون للنشر" فقد انطلقت فكرة تأسيسها لتكون دار نشر عربية، متخصصة أوّلا بتاريخ فلسطين، القديم والحديث، وبكل ما يتعلق بهذا التاريخ من إشكاليّات وأسئلة تفيض على الواقع الراهن.

كما تركز الدار على حقل الدراسات التوراتيّة المتعلّقة بأرض فلسطين التاريخية، وما أنتجته هذه الدراسات من وقائع على الأرض، من خلال نشر ما يتعلق بنظرية "تهافت التاريخ التوراتي"، التي أسهم في تأسيسها وتطويرها المؤرخ الفلسطيني البروفيسور عصام سخنيني، في عدد من دراساته ومؤلفاته.

الحكايات والتحايل على الزمن

هيثم حسين
كاتب سوري

هل البشر كائنات قصصية حقّاً؟ هل حيوات الناس حكايات مستمرة تمضي إلى نهاياتها المحتومة المتوقعة؟ هل الحكاية لعبة للتحايل على الزمن والموت؟ ألا ترسم الحكايات مصائر البشر بصيغة أو بأخرى؟ كيف تتحول بعض الأساطير إلى أحداث تاريخية توصف بأنّها موثّقة؟

تمتلك الحكايات قوة إقناع كبيرة، وتلعب دوراً في تهيئة الآخرين، القرّاء أو المستمعين، لتقبّل ما يُحكى لهم، وإدخالهم لعبة القصّ التي تمضي في دوائر متسلسلة تتجدّد كل مرّة بحسب الظروف المصاحبة.

إذا كان الموت هو النهاية التي لا مهرب منها، فإنّ الحكايات تمثل دروباً مفضية إلى النهاية المكتوبة، لكنها تتفنّن في حياكة التفاصيل وصياغة المصائر والحيوات، بحيث تجعل كلّ حياة عالماً بحدّ ذاته، وتشغل الآخر عن النهاية وتوهمه بأنّه قد يعثر على نهاية أخرى.

قد يكون طريق الحكاية أكثر متعة وتشويقاً من الوصول إلى نهايتها، لأنّ الطريق يتأسّس على جماليات التخييل التي تخلّق في عوالم لانهائية، وتلهي صاحبها عن المصير، تبقيه في دوّامة التفاصيل التي تزيّن له ماضيه وحاضره، وتبقيه متأهّباً بانتظار غده.

يلفت بعض الباحثين إلى أن القصص تجعل المجتمعات تعمل بشكل أفضل، بالتشجيع على التصرف بأخلاقية، وأنها تغمر الناس بالمبادئ والقيم القوية نفسها التي تغمرهم بها الأساطير المقدسة، ويرى أن البشر يعيشون قدراً عظيماً من حياتهم داخل القصص الخيالية، أي في عوالم يقر فيها الخير عموماً ويُثاب، ويدأب فيها الخير ويعاقب. ولا تعكس هذه الأنماط قاعدة أخلاقية في نفسية البشر فحسب، بل إنها تعززها أيضاً.

لربّما يندرج كلّ فعل بشريّ في سياق حكاية الحياة نفسها، ولا يخفى أنّ هناك حكاية رابضة وراء فعل ما، تكون دافعة ومحرّضة وملهمة للبحث عن صيغ لإتمامها، أو تطويرها، وأحياناً تكون آليات بناء الحكاية أكثر إمتاعاً وفائدة من الحكاية عينها، لما تحمله من عبر ودروس حياتية، وحكائية معاً.

لا يتعلّق أمر الحكاية بكيفية الحكي، بقدر ما يتعلق بهويتها ككينونة تخطّ مصائر، وتحمل معارف، وتنحو صوب الأسطرة لتغدو عالماً بذاتها، أو مجالاً مفتوحاً على الإضافة والتعديل بحسب مقتضيات العصر. وقد يصحّ القول بأنّ الإنسان حكاية، وكل ما يأتيه أو يقوم به، منطلقٍ من بؤرة حكاية أو مبنيٍ عليها.

لكل قصيدة حكايتها، ولكل قصة كذلك حكايتها، ولكل بحث حكايته، كما أنّ لكلّ دافع حكايته الخاصة بدوره، وهكذا فإنّ الحكايات تتخلّل مختلف جوانب الحياة، وتبلورها بطريقتها المختلفة كل مرة.

يقول الكاتب الأميركي جوناثان غوتشل في كتابه "الحيوان الحكاء.. كيف تجعل منا الحكايات بشراً؟" إن البشر كائنات قصصية، لذلك تمس الحكاية كل جانب من حياتنا تقريباً. ويبحث علماء الآثار عن قرائن في الحجارة والعظام، ويركبونها معاً، لسرد ملحمة عن الماضي. كما أن المؤرخين هم أيضاً حكاؤون، إذ يرى البعض أن الكثير من الروايات في الكتب المدرسية، مثل القصة المعروفة عن اكتشاف كولومبس لأميركا، شائعة بكل ما فيها من تحريف وحذف، حيث تصبح أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ.

ويؤكد غوتشل في عمله أنه يُقال للمديرين التنفيذيين باستمرار إن عليهم أن يكونوا حكائين مبدعين، وعليهم أن يحوكوا قصصاً أخاذة عن منتجاتهم وعلاماتهم التجارية التي تطرب مشاعر المستهلكين. ويلفت إلى أن المحللين السياسيين لا يرون الانتخابات الرئاسية بوصفها منافسة بين سياسيين مؤثرين وجدلاً بين أفكارهم فحسب، بل هي مباراة بين قصص متضاربة عن ماضي الأمة ومستقبلها أيضاً. وأن الباحثين القانونيين يتصورون المحاكمة باعتبارها مسابقة للقصة أيضاً، ويؤلف فيها المستشارون القانونيون قصصاً عن الذنب والبراءة، متنازعين حول مَن يكون البطل الحقيقي.

يقدم غوتشل بعض الاقتراحات التي بنى عليها بحثه، يقول متوجهاً للقارئ بشكل مباشر: اقرأ الأدب وشاهده، لأنه سيجعلك أكثر تعاطفاً وأكثر قدرة على خوض معضلات الحياة. ولا تسمح للأخلاقيين بأن يخبروك بأن الأدب يحط من نسيج المجتمع الأخلاقي. وتذكّر أننا بطبيعتنا متعطشون إلى القصة، وأنه عندما ننغمس عاطفياً في شخصية وحبكة، يسهل صهرنا وتشكيلنا.

> طريق الحكاية أكثر متعة وتشويقا من الوصول إلى نهايتها، لأنّه يتأسّس على جماليات التخييل التي تخلق عوالم لانهائية

كما يؤكد على أهمية الاحتفاء بقدرة القصص على تغيير العالم، وأن أحلام اليقظة هي قصصنا الخاصة الصغيرة التي تساعدنا على التعلم من الماضي والتخطيط للمستقبل، ويقول للقارئ: انتبه، حين يثبت حكاؤك الداخلي على مسنن التسريع، وعليه أن يكون مرتاباً بشأن نظريات المؤامرة ومنشورات مدونته، وروايات تبرئة الذات من العداء مع الزوجة وزملاء العمل. ويضيف: إن كنت شاكاً، فحاول أن تكون أكثر تساهلاً مع الأساطير الوطنية والدينية، التي تساعد في ربط المجتمع معاً، أو على الأقل حاول أن تكون أقل احتفاء بفنائها.

يوصي القارئ كذلك بالذهاب للاستمتاع بالاستحالة الخيالية للمسار التطوري المتعرج الذي جعلنا كائنات قصصية، ويقول قد منحنا هذا كل الحيوية المبهجة الحركية للقصص التي نرويها. ويقول: انتبه بشكل أكثر أهمية، إلى أن معرفة قوة القص، ومصدرها وسبب أهميتها، لا يمكن أن تقلل من عيشك لها. ويقول بصيغة الأمر: اذهب وتِه في رواية، وسترى...!

ولعل ما يبقي الإنسان على أهبة الاستعداد لتطوير ذاته، هو جانب من التشويق الذي يبقي حكايته الشخصية معلّقة بانتظار أن يسرد تفاصيلها؛ يدوّنها بطريقة معيشة، يهيّئها لتكون مقنعة ومؤثرة، عساها تلهم آخرين واقعين في شراك اليأس، ولا يملكون مفاتيح للبحث عن حكاياتهم أو خلاصهم المأمول، بعيداً عن الموت الذي يحدّد خطّ النهاية مسبقاً، ويخيّم بظلاله القاهرة على البشر.

الحكايات طرق لا تنتهي (لوحة للفنانة هيلدا حياري)